

النحو العربي: النشأة والتععيد

يعدّ علم النحو من العلوم العربية التي ظهرت مبكراً؛ لأسباب مختلفة، منها حرص أهلها على سلامة لغتهم، وفهم القرآن الكريم وغيرها من الأسباب، علماً أن النحو العربي قد نشأ تدريجياً، واستمرت جهود العلماء في البحث فيه نحو قرن من الزمن لكي يظهر أول كتاب منه، وتبعاً لذلك سيكون الموضوع الأول في هذا المقياس التعريف بهذا العلم لغة واصطلاحاً، ثم إشارة إلى مرحلة نشأته الأولى باختصار، وتوضيح أسباب وضعه.

معنى النحو: ويتضمن ذلك جانبين: الناحية اللغوية والاصطلاحية:

أ- لغة: ومما جاء معجم العين: "النَّحْوُ: الْقَصْدُ نَحْوَ الشَّيْءِ. نَحَوْتُ نَحْوَهُ، أَي: قَصَدْتُ قَصْدَهُ... وَيُجْمَعُ عَلَى الْأَنْحَاءِ¹. وزاد الفيومي في معجمه استعمالات أخرى منها: "وَنَحَوْتُ بَصْرِي إِلَيْهِ، أَي صَفَرْتُ. وَأَنْحَيْتُ عَنْهُ بِصْرِي، أَي عَدَلْتَهُ. ... وَأَنْحَى فِي سَيْرِهِ، أَي اعْتَمَدَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ. وَالْإِنْحَاءُ مِثْلُهُ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، ثُمَّ صَارَ الْإِنْحَاءُ الْإِعْتِمَادَ وَالْمِيلَ فِي كُلِّ وَجْهِ.

و: نَحَوْتُ نَحْوَ الشَّيْءِ... قَصَدْتُ، فَالنَّحْوُ الْقَصْدُ، وَمِنْهُ النَّحْوُ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَنْحُو بِهِ مِنْهَاجَ كَلَامِ الْعَرَبِ إِفْرَادًا وَتَرْكِيبًا². أي أن مستعمل العربية يحاول أن يقلّد أو يتّبع طريقة العرب الفصحاء في نطقهم للغة، فإذا حصل له ذلك فقد صار مثلهم.

ب- اصطلاحاً: ولعلماء العربية تعريفات كثيرة، غير أننا سننتقي التعريف الآتي:

النَّحْوُ: "علمٌ يدرس مواقع الكلمات داخل الجملة والعلاقات النحويّة بينها، ويُعرف به أحوال أواخر الكلام إعراباً وبناءً"³ وذلك يعني أن "الجملة ميدان علم النحو؛ لأنه العلم الذي يدرس الكلمات في علاقة بعضها ببعض، وحين تكون الكلمة في جملة يصبح لها معنى نحوي؛ أي: تؤدي وظيفة معينة تتأثر بغيرها من الكلمات وتؤثر في غيرها أيضاً. وأنت حين تقول: إن هذه الكلمة "فاعل" مثلاً فإنك تعني أن قبلها "فعلاً" بينه وبين الفاعل علاقة من نوع ما، وهكذا في بقية أبواب النحو."⁴ وفي هذا يظهر وجه اختلاف النحو عن الصرف؛ لأن الصرف يدرس اللفظة المفردة، بغض النظر عن تركيبها، ولكن النحو لا يدرسها إلا وهي مركبة مع غيرها.

لماذا سمي هذا العلم نحواً؟ وقد وردت في ذلك أقوال للنحاة وكتاب الطبقات، منها:

1- قول الزجاجي: (ت 337هـ) الذي قال: "يحكى أن علي بن أبي طالب - عليه السلام - بعد أن ناول أبا الأسود الصحيفة التي كتب فيها بعض الأصول قال له: "انح هذا النحو فسمي هذا العلم نحواً"⁵ وذلك يعني أن كلمة "نحو" صيغت بمناسبة ظهور المبادئ الأولى لهذا العلم.

2- بينما يحاول السيرافي: (ت 368هـ) أن يعمّق الفكرة أكثر: وهو يتحدث عن "الكلام المستقيم القبيح" إذ قال: "إن الكلام قسمان: كلام ملحون، وكلام غير ملحون، فالذي لحن به عن القصد، وكذلك معنى اللحن إنما هو العدول عن

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، مادة (نحو)

2 - الفيومي، المصباح المنير، مادة (نحو)

3 - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة. 1 مادة (نحو)

4 - عبده الراجحي، التطبيق النحوي، مكتبة المعارف، ط 1. القاهرة: 1999م، ص 13

5 - أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو/89

قصد الكلام إلى غيره، وما لم يكن ملحونا، فهو على قصد وعلى النحو، ومن ذلك سمي النحو نحواً⁶ أي من أبرز معاني النحو أن يقصد المتحدث أو مستعمل العربية الأداء اللغوي الذي يطابق أداء الفصحاء السليقيين من العرب.

3- أما عن زمن إطلاق المصطلح على هذا العلم فيرى **عبد الرحمن الحاج صالح** - رحمه الله - أن: النحو بدلالته على العلم لم يرد إطلاقاً في كتاب سيبويه. ولم يظهر بهذا المعنى إلا في كتاب "معاني القرآن" للأخفش تلميذ سيبويه لأول مرة، وفي هذا النص وحده: "وهذا لحن لم نسمع به من أحد من العرب ولا أهل النحو" كما ظهر عند الفراء في قوله: "بجاز في قياس النحو"⁷ وهنا يُذكر أن الباحث قد رجح تسمية "العربية" أو "علم العربية" قبل أن ينتشر مصطلح "النحو" والكلمة وإن وردت في كتب النحو وغيرها بهذا الاسم، فإن المؤلفين لم يكونوا يقصدون هذا المصطلح المتداول الآن.

أسباب وضع النحو: ويرى المهتمون بشؤون العربية أن هناك عاملاً أساسياً في وضع النحو يتمثل في دخول كثير من الأعاجم إلى الإسلام واختلاطهم بالعرب، وهؤلاء لا يحسنون العربية، فكان من مظاهر ذلك بروز اللحن، إضافة إلى أسباب أخرى ذكرها الباحثون، ومنها:

أ- الدافع الديني: وهو في نظر كثير من الباحثين يعدّ الدافع الأساسي لوضع النحو "فقد كانت خشية المسلمين على كتابهم أن يصيبه اللحن في قراءته أو التصحيف في أحرفه فيؤدي ذلك إلى تحريف آياته وتغيير المفهوم منها، وبذلك تتغير الأحكام المأخوذة منه، والمبنية عليه ويصبح المفهوم من الآية ... ولهذا انصرف هؤلاء العلماء إلى بذل الجهود"⁸ من أجل الوصول إلى طريقة تمكنهم من مساعدة القارئ للقرآن على الوسيلة التي تقيه من اللحن في كتاب الله - عز وجل -.

ب- الغيرة على اللغة القومية: فقد عزّ على الغيورين على اللغة العربية أن يروها مستعملة بكيفية مشوهة من غير أن يسعوا إلى إيجاد وسيلة تحفظ على الناس لسانهم، وتأخذ بيدهم، وتيسّر عليهم كيفية ضبط القراءة والكتابة

ج- الحرص على فهم القرآن؛ ذلك أن ضبط القرآن الكريم بالقراءة الصحيحة يساعد على فهم المقصود منه، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كانت القراءة مطابقة لأسس النحو؛ فبدون رفع الفاعل ونصب المفعول وجرّ المجرور لن تتضح المعاني المقصودة.

واضعه: يتداول كتاب الطبقات أسماء متعددة ينسبون إليها وضع المبادئ الأولى لهذا العلم، فمنهم من ينسبه إلى علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه ورضي عنه - ومنهم من ينسبه إلى زياد بن أبيه، غير أن الرأي الراجح والغالب لدى الباحثين أن أول من وضع مبادئ النحو هو أبو الأسود الدؤلي، وذلك للحجج الآتية:

أ- تنص كل الروايات الأولى - قبل القرن الرابع - على أن أول من وضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي - وأقدم ما وصل إلينا من ذلك وأوثقه هو ما قاله ابن سلام الجعفي (ت 231هـ) في كتابه (طبقات فحول الشعراء). الذي قال: "أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها و وضع قياسها أبو الأسود الدؤلي وكان رجل أهل البصرة وكان علوي الرأي."⁹ وهو عالم موثوق به بالإجماع لاستخدامه منهج علماء الحديث في الرواية من جهة، وحرصه على ضبط الرواية ودقتها، والذي لم يطعن فيه أحد من العلماء.

6 - شرح كتاب سيبويه 2/ 92 ع/ منطق العرب في علوم اللسان ص 26

7 - الفراء، معاني القرآن 1/ 161 ع/ عبد الرحمن الحاج صالح، منطق علوم العرب في علوم اللسان، ص 26

8 - خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ط 3. دار الأمل (الأردن) 2001، ص 5

9 - محمد بن سلام الجعفي، طبقات فحول الشعراء 1/ 12

كما أنه عاصر كبار العلماء؛ فقد ذكر في كتابه ما جرى بينه وبين يونس بن حبيب، وبينه وبين سيويوه وأبي عبيدة: من ذلك: "أخبرني يونس" "قلت ليونس" و "قال يونس" و "قلت لسيويوه: كيف الوجه عندك؟". وروى عن أبي عبيدة وسمعه يجب عن سؤال¹⁰. وكل هذا يؤكد صحة رواية الرجل، كونه كان على صلة وثيقة بالمشغولين بهذا العلم، ونقله لروايات موثقة.

ب- وقد نسب المبرد ثم ابن قتيبة وضع النحو لأبي الأسود نصا. الأول في كتاب "الفاضل"، والثاني في كتاب "المعارف" وفي "عيون الأخبار". أما المبرد فأخذ من أبي حاتم القول بأن: "الإمام علي أعطاه أصولا بنى عليها..." وهذان العلمان أقرب زمانا إلى ابن سلام¹¹ وتوافق روايات هؤلاء العلماء الثلاث يقوي صحة ما نسب إلى أبي الأسود الدؤلي.

أما ما روي من ذلك بأسانيد ف... من القرن الرابع، وأقدم رواية لأبي بكر ابن الأنباري (ت 328هـ) والذي يؤكد أن... أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي

وقد أضافوا إلى الخبر الأول الحكايات البعيدة عن الحقيقة، واختلفوا في ذلك أشد الاختلاف، فمنها ما نسبوه من أقوال إلى الإمام علي كتقسيم الكلم وتحديداتها، ولم يظهر هذا إلا بعد زمن طويل، وهو "الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل"¹² ونسبوا إليه أيضا تقسيما آخر إلى "ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر" نفسه

ومن المبالغة أن ينسب ذات المؤلف - القفطي - كتابا للإمام علي في هذا التخصص.¹³ وهو ما لم يقل به أحد من العلماء منذ القرن الأول إلى القرن الرابع - فيما نعلم -.

أهم العلماء الذين أسهموا في بنائه: النحو الذي وصل إلينا لم يظهر فجأة، ولكنه مرّ بمراحل عدة، وهو ثمرة اجتهاد علماء كثر، لكننا سنركز هنا على بعضهم، وسنخص الذين سبقوا ظهور أول كتاب، ولعلّ أهمهم¹⁴:

أبو الأسود الدؤلي: (ت 69هـ) واسمه ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، عاش في القرن الأول للهجرة، ومن بين الأماكن التي عاش فيها البصرة، وقد عاصر عهد الإمام علي بن أبي طالب وجزءا من العهد الأموي، وأهم أعماله في مجال خدمة اللغة العربية:

وضع نقط للمصحف الشريف، والمقصود بالنقط الشكل؛ لأن القرآن الكريم الذي جُمع قبل ذلك لم يكن مشكولا، وقد قام بذلك بتوجيه من الإمام علي، فكان أن استعان بكاتب حاذق - بعد أن امتحنه - و وضع علامات خاصة تميّز بين الحركات (الضمة والفتحة والكسرة والتنوين) لتسهيل القراءة للقرآن الكريم، وتجنّب المسلمين - غير المتكئين من العربية - الخطأ في القراءة، وهو عمل يدخل في صميم وضع المبادئ الأولى لقواعد اللغة العربية.

اجتهاد في وضع المبادئ الأولى للنحو العربي، وفي ذلك يقول ابن سلام: "وكان أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأهّج سبيلها، و وضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي"¹⁵ وهذا يعني أنه أول من انتبه إلى بعض القوانين النحوية وشرع في وضع بعض المصطلحات النحوية، والتي يصعب تحديد نوعها وحجمها على وجه الدقة، لغياب رواية موثقة.

تلاميذ أبي الأسود: وقد تتلمذ لأبي الأسود عدد من الدارسين من أشهرهم:

10 - عبد الرحمن الحاج صالح، منطق علوم العرب في علوم اللسان ص 15.

11 - عبد الرحمن الحاج صالح، منطق علوم العرب في علوم اللسان ص 15.

12 - القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة 4/1

13 - عبد الرحمن الحاج صالح، منطق علوم العرب في علوم اللسان، ص 15

14 - ننبّه إلى أن هذا العنصر قد اختصرناه من كتاب محمد خير الحلواني "المفصل في تاريخ النحو العربي" ج 1 قبل سيويوه من ص 93 إلى ص 300

15 - محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء 12/1

أ- نصر بن عاصم (ت 90هـ) وليس في المراجع وكتب الطبقات معلومات وافية عنه غير حديثهم عنه من حيث إقامته في البصرة، وتمكنه من العربية وتلقيه العلم على يد أبي الأسود الدؤلي، حيث أخذ عنه النحو والقراءة.

ب- يحيى بن يعمر (ت 129هـ): وهو من التابعين التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وروى عنهما الحديث، كما تولى القضاء بمرو، وعُرف بالفصاحة، ومما اشتهر به تصحيح أخطاء مستعملي اللغة العربية، ومنهم بعض الشعراء.

ج- عبد الرحمن بن هرمز (ت 117هـ): وكنيته أبو داود، عاش في المدينة المنورة، والتقى فيها بأكبر الصحابة علماً وأخذ عنهم، منهم أبو هريرة وعبد الله بن عباس، وهو أحد القراء المشهورين، وممن تلقى القراءة عنه نافع بن أبي نعيم، وأخذ النحو عن أبي الأسود وأذاعه بين الناس.

د- عنبسة بن معدان (والمشهور بعنيسة الفيل) أصله من العراق قصد البصرة وأقام فيها، وفيها أخذ العلم عن علمائها منهم أبو الأسود الدؤلي، وبالإضافة إلى النحو فقد روى الشعر، واشتهر بتخطئته للفرزدق.

و- ميمون الأقرن، ولم تقدم كتب التراجم معلومات وافية عنه، وما ذكره عنه أنه كانت له مكانة علمية، بحيث خلف عنبسة في حلقة العلمية، وممن درس لديه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي.

مرحلة التأسيس: وهي المرحلة التي خطا فيها النحو مرحلة مهمة، والتي عرفت علماء بارزين قدموا إضافات مهمة للنحو العربي، ومنهم:

عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ): والرواة يذكرون أنه أخذ النحو عن ميمون الأقرن، وأخذ القراءة عن يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم، وعُرف بكثرة تصديده للفرزدق في بعض أخطائه فما كان من الأخير إلا أن هجاه. ولعل أهم ما تميز به عمله:

- أنه توسع في استنباط الأقيسة التي لم تكن مستنبطة في المرحلة السابقة

- قال عنه محمد بن سلام الجمحي: "وكان أول من بعج النحو، ومدّ القياس والعلل، وكان معه أبو عمرو بن العلاء، وبقي بعده بقاء طويلاً، وكان ابن أبي إسحاق أشد تجريداً للقياس، وكان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها"¹⁶ والمقصود بالقياس القاعدة النحوية، أي أنه كان يمد حكم القاعدة ويجعله مطرداً. وقد ذكره سيبويه ثماني مرات في كتابه.

- عرف باهتمامه بالتأويل؛ حيث إنه قرّب النحو من الفقه، فاستخدم الرأي في تفسير الظواهر النحوية، وأوّل ما لا يظهر فيه القياس.

- دعا إلى استقلال النحو عن سائر علوم اللغة، ويظهر جلياً في قوله ليونس: "عليك بباب من النحو ينطرد وينقاس".

عيسى بن عمر (ت 149هـ): ويكنى أبا عمر، من ثقف، أدرك بعض الصحابة وأخذ عنهم مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، كما أفاد من علماء عصره مثل يحيى بن يعمر، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي النحو والقراءة، واحتك بالأعراب وأفاد منهم، وبعضهم ينسب له كتابين: "الجامع" و"الإكمال" ولنا عودة لهذا في الموضوع التالي.

هذا وقد ذكره سيبويه ثلاث مرات بالاسم، ومما نسبته له كتب اللغة والنحو: المفعول المطلق، والمفعول معه، والنداء والحال، والمستثنى، وموضوعات أخرى، تدل على تمكن عيسى بن عمر من هذا العلم، وتوسّع الرجل في قضاياها.

أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ): واسمه زبّان، ينسب إلى تميم ومازن، أخذ النحو عن نصر بن عاصم، وأخذ القراءة عن شيوخ مكة والمدينة، منهم أنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، أما أشهر تلاميذه فمنهم يونس بن حبيب،

والأصمعي، وأبو جعفر الرؤاسي، والخليل بن أحمد، والكسائي، لكنه اشتهر أكثر برحلاته إلى البادية ومشاهدة الأعراب وأخذ اللغة عنهم، وهو من القراء السبعة المشهورين.

وأما ما ذكره تلاميذه من نحوه: اعتبار "كم" اسماً، وحديثه عن توابع المنادى، ولا النافية للجنس، والاستثناء، والممنوع من الصرف، والأفعال الخمسة، وضمير الفصل، والتصغير، وصيغ الأفعال وتصريفها، والإعلال والإبدال، وغيرها من المسائل. كما اهتم من الناحية المنهجية بالقياس والاستقراء في اللغة، مما كان له أثر على العربية وعلى الأجيال التي تلت العلم منه.

مرحلة النضج: وهي المرحلة التي وصل فيها النحو العربي إلى الاكتمال، ومن العلماء الذين نخصهم بالحديث:

يونس بن حبيب (ت 183 هـ) ينحدر من مكان يسمى بليدة بين بغداد و واسط، قدم إلى البصرة وأخذ عن علمائها، كأبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، والأخفش الأكبر (أبو الخطاب)، ومن تلاميذه: الأصمعي، سيبويه، الكسائي، الفراء، وغيرهم.

ذكر بعض المترجمين عناوين لكتب ألفها لكنها لم تصل إلينا، ومما يدل على مكانته العلمية أن خصّه سيبويه بالذكر في أكثر من خمس وأربعين موضعاً، مؤيداً له حيناً، ومعتزلاً أخرى، ولعل أهم ما يميز عمل يونس:

جمعه بين اللغة والنحو، واهتمامه بالجمع بين السماع والقياس، وانشغاله بالعلة النحوية، واللجوء إلى التأويل عندما تستدعي المسألة ذلك، وللسيرافي مقولة تلخص عمل الرجل ومكانته؛ إذ قال فيه: "وأما يونس بن حبيب فإنه بارع في النحو من كتاب أبي عمرو بن العلاء، وقد سمع من العرب كما سمع من قبله، وقد روى عنه سيبويه وأكثر، وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها، وقد سمع منه الكسائي والفراء. وكانت حلقتة بالبصرة يتتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية"¹⁷ مما يدل على مكانة الرجل العلمية، وإسهامه في إرساء قواعد هذا العلم.

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ): ينتمي إلى قبيلة الأزد من اليمن، وكانت ولادته نحو 100 هـ، جاء إلى البصرة قادماً إليها من عُمّان، أخذ العلم عن عيسى بن عمر النحو، وأبي عمرو بن العلاء، وأخذ القراءات عن ابن كثير، وعاصم، عرف عنه كثرة رحلاته إلى البادية ومشاهدة الأعراب، لأخذ اللغة عنهم، أسهم في تأليف العديد من الميادين من أهمها: معجم العين، وهو أول من ابتكر علم العروض، إضافة إلى إسهامه في النحو والصرف، ويكفي أن نعلم أن سيبويه نقل عنه أو ذكر مسائل تتعلق بأرائه فيما يخص اللغة والنحو والتي وصلت إلى ستمائة حالة.

ومن تلاميذه: سيبويه و الأصمعي والنضر بن شميل و مؤرج السدوسي واليزيدي و الكسائي زعيم المذهب الكوفي في النحو. أما إسهامه في مجال النحو فهو أمر جليّ، ويكفي أنه كرّس القياس، وتخرّج على يده كثير من عباقرة اللغة العربية و النحو بصريين وكوفيين، فهو الذي أشاع كثيراً من مصطلحات النحو ومبادئه، وكتاب سيبويه يعد إحدى ثمرات جهد الخليل.